كيف نشأت مكة المكرمة[1]

والحديث عن مكة المكرمة؛ ذلك البلد الذي يقدسه فوق أكثر من أربعمائة مليون مسلم، ويتوجهون إليه خمس مرات كل يوم في صلواتهم الخمس، ويحج منهم مئات الألوف سنويًّا، ويحترمه جمهور العالم المتمدن، فالحديث عن نشأته لذيذ وطريف يسر من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

والحديث عن نشأة ذلك البلد الأقدس يرجع بنا إلى وراء في التاريخ بنحو أربعة آلاف سنة؛ حتى نستطلع الطلعة البهية للخليل إبراهيم خليل الرحمن أبي إسماعيل الذبيح، وهما اللذان وضعا الحجر الأساس لعمران مكة المكرمة بين جبال فاران على حد تسمية التوراة، فنقف غير طويل على نبذة صالحة من تاريخ مؤسس الحنيفية السمحة؛ مجذذ الأصنام وخائض النيران ومطفئها ببرد إيمانه ورضوان الله حتى صارت بردًا وسلامًا على إبراهيم.

إبراهيم العراقي الأشوري البابلي الفلسطيني، جواب البلاد في الله تعالى من الفرات إلى النيل إلى جبال فاران بجوف الجزيرة عن وطن العز والسيادة، وفرارًا من المهانة والذل والاستعباد، وبعدًا للقوم الظالمين.

نشأ إبراهيم بن آزر في العراق من أب كان سادن الأصنام وناحت الأوثان، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين بأن رب السموات والأرض ورب العالمين هو الإله الحق الذي لا تجوز العبادة إلا له ولا تعنو الوجوه إلا إليه، وأن ما عليه أبوه وقومه ضلال وباطل، فناظر أباه وقومه في بطلان عبادة الأصنام قائلًا لهم: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]، ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥-٩٦].

---

(١) مجلة «الحج» - جمادى الأولى والآخرة - ١٣٦٩هـ.

﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٢-٤٥]، فأجاب شيخ الأصنام وناحت الأوثان: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦]، قال الفتى لأبيه في حشمة ووقار: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧-٤٨].

أي أن قوم إبراهيم الذين برعوا في رصد السماء وحساب الأفلاك والهواء؛ نجومها وشمسها وقمرها وكواكبها وبنوا لها تماثيل ومعابد تحمل أرواحها عند غيابها بزعمهم، ونشروا في العالمين علومًا فلكية صحيحة وخرافية وأرصادًا مضبوطة وقريبة من الضبط فضلًا عن براعتهم في الصنائع والزراعة وفنون الحرب، فلم يكن يسهل عليهم ترك ما توارثوه أجيالًا عن أجيال من حب أجرام السماء وعبادتها.

ولقد ناظرهم الفتى إبراهيم في إبطال تأليهها بأفولها وغيابها: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

[الأنعام: ٧٦-٨١]

وأما الأصنام فقد عزم الفتى المغامر أن يضحى في سبيل هدمها، واهتبل أحسن الفرص لتنفيذ خطة الهجوم، فأمهل حتى يخرج القوم إلى لهوهم في

عيدهم؛ إذ يخرجون فيه إلى الصحراء ليتم لهم اللهو واللعب والسباق والرقص والزمر، ولقد دعوه إلى صحبتهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: ٨٨- ٩٤]، ﴿قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٧- ٩٨].

وقعت المغامرة، وكسر الفتى إبراهيم أصنام القوم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨] فأبقى كبير الأصنام معلقًا في رقبته فأس التكسير ليتندر بهذا الكبير أمام عابديه، أو ليسخر منهم أمام آلهتهم؛ إمعانًا في إقامة الحجة وإغراقًا في السخرية بمعتقد القوم وآلهتهم ودينهم.

رجعوا من عيدهم وآبوا من لهوهم إلى الهيكل والمعبد ليقوموا بفريضة الدين ليكفروا خطايا اللهو والباطل وما عسى أن يكونوا ركبوا في لعبهم من عبث ومجون وخلاعة، فإذا الأصنام مهشمة والآلهة جذاذًا إلا كبيرًا لهم لا يبدي حراكًا ولا ينوخ على زملائه ولا ينعي رفاقه ولا يبكيهم ولا تدمع له عين عليهم. يا للفجيعة؟!! أصنام تكسرت وآلهة تهشمت وكبيرهم أصم وأبكم لا يبدي ولا يعيد ولا يتكلم.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩- ٦١]. وانعقدت المحاكمة، وجلسوا على منصة القضاء، وكان السؤال والجواب والنطق بالحكم القاسي الذي لا هوادة ولا رحمة فيه: ﴿قَالُوٓا ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢] قال متنفرًا ساخرًا من عقولهم وعقيدتهم وآلهتهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. فيشكوا إليكم ممن كسرهم! فهل يعجزون عن النطق كما عجزوا عن الدفاع عن أنفسهم؟

﴿فَرَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]. لقد ظلمتم الفتى في جلبه مشقوقًا عليه ليعاقب على جرم ارتكبته الأصنام بعضهم مع بعض،

آلهة تهاوشت وتهارشت، وطغى بعضها على بعضها، فكان صدام وكان تهشيم وتكسير وتدمير وتبتير بعضهم البعض، فما ذنب الفتى إبراهيم؟ وإن كان ذكرهم أحيانًا بسوء فذلك حرية الرأي التي لم تقترن بسوء العمل، ففي الناس من قد يقول ولا يعمل.

ثم صاح بهم شيطان الفكر وتنبه منهم نائم العقل؛ هل هي حقًّا بحيث إذا سألناها عمن جعلها حصيدًا خامدين؟ ومتى عهدتها تتكلم أو تجيب؟ هل أردت يا إبراهيم أن تجمع إلى جنايتك على الأصنام السخرية بنا وبها؟ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

فقامت لإبراهيم الحجة واستقامت المحجة، أصنام لا تتكلم، فهي صماء بكماء عاجزة تكسر وتهشم فلا تدافع عن نفسها، ولا هي تخبر عمن هشمها فكيف إذن تعبد؟ ولماذا تؤله ولها يسجد؟ وواجه قومه بالحق المرير عليهم معلنا دينه القويم. ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

هنالك صبوا الحكم العرفي والقضاء العسكري إذ قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

وجمع القوم قواهم وكيدهم وما أوتوا من حول وطول ومال وقوة، واشترك الجميع في اشتداد الجحيم؛ انتصارًا للآلهة، حتى العجوز فيهم باعت غزلها لتشتري حطب الجحيم لنار إبراهيم؛ مجذذِ الآلهة ومهدم الأصنام، ولم تبخل العذارى وذوات الخدور عليهم فضلًا عن سراة القوم وكبرائهم.

وأوقدوا الجحيم حتى طار لهبه إلى عنان السماء، وانتشر وهجه وسعيره أميالًا وأميالًا، فأنى لهم بالقرب من هذا الجحيم لتنفيذ الحكم القاسي الظالم في الفتى إبراهيم.

حينئذٍ نتق لهم شيطان الحيلة ومردة الاختراع صنعة المنجنيق، كما أوحى إلى إخوانهم من شياطين العصر اختراع مقوضات العمران من ذريات وهيدروجينات وصواريخ وعقبان جوية تسير بالرادار، إلى غير ذلك من

مدمرات المدنية والحياة.

أوثقوا الفتى كتافًا وأقعدوه في كفة المنجنيق، وطيروا المنجنيق رميًا في الهواء إلى الجحيم. تفتحت السماء والأرض، واستأذنت السحب والبحار في إغاثة الخليل وإطفاء نار جحيمه، فقيل لهم بلسان التدبير الرباني: إن كان استغاث بكم فأغيثوه.

وروت الآثار أن جبريل عرض عليه المعونة فأباها؛ اكتفاء بعين الله وسمعه وعلمه وحماية ربه.

وجاء عن الحبر ابن عباس[1] أن إبراهيم حين ألقي في النار قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. وأرادوا به كيدًا فجعلهم الله الأخسرين، الأسفلين، الفاشلين.

وإلى هنا يسدل الستار على حيلة إبراهيم في العراق، وينتهي فصل من تاريخه مع قومه بابل وأشور؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]. فهداه الله وهاجر إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين؛ بلاد فلسطين ضحية المطامع الظالمة، وغصيبة الفئة الرذيلة الذليلة الطريدة الشريدة، فأخذها وطنًا يقوم فيها بدينه ويؤسس قواعد الملة الحنيفية بإذن ربه.

وهاجر معه زوجه سارة؛ هاجرة وطنها وعزة قومها وشرف حسبها، فزار بها إبراهيم مصر هبة النيل، وأحزمها ملك مصر سبيئة من بيت الملك والسيادة، أعني بها هاجر التي نشأت في عز الملك زمانًا، وإن عدا عليها الزمان بزوال ملك أبيها، فالزمان دول، والدهر قلب، والأيام غير.

رجع إبراهيم مع زوجه سارة وجارية زوجه هاجر من الزيارة المصرية والنزهة النيلية.

وساح فيما بين النيل والفرات؛ البلاد التي سيعمرها بنوه، ويقطنها المؤمنون به، فتوسط بينهما حيث (أورشليم) وقد نيف على الثمانين،

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٤٥٦٣).

وأكرمته زوجه سارة بإهداء جاريتها هاجر إليه، لعل الله يرزقه منها الولد، وقد كان رجاؤها حقًا، فحملت الجارية المصرية هاجر من الخليل العراقي بأبي العرب الذبيح إسماعيل.

ومن هنا يبدأ الفصل الثالث من تاريخ إبراهيم ويرفع الستار عن الخليل.

يمشي في صحراء بلاد العرب مع سريته المصرية هاجر وابنه إسماعيل طفلًا رضيعًا، إذ يذهب بهما إلى جبال فاران؛ ليضع نواة أساس مكة المكرمة بعد ذلك؛ حملها بأمر الله من بلاد فلسطين؛ ليسكنها بأمر الله تعالى في واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي يبنيه بعد ذلك إبراهيم وإسماعيل.

وشب الرضيع إسماعيل في حجر أمه هاجر، وبين أفراد قبيلة جرهم التي ساقها الظمأ لتشرب من زمزم التي أنبعها الله لهاجر وإسماعيل، وسكنوا حولها بإذن هاجر، وشب الغلام الفتى إسماعيل بينهم وترعرع وتزوج منهم امرأة بعد أخرى، وماتت أمه هاجر المصرية بعد هذه الحياة الحافلة بعظائم الأمور، فمن نشأة ملكية في فجر حياتها إلى عدوان الدهر بزوال ملك أبيها إلى سبي إلى رق لدى خير الناس سارة زوج إبراهيم إلى تسرى خليل الرحمن بها إلى أم لأبي العرب إسماعيل وقيام بتنشئته نشأة صالحة في صحراء الجبال بين قوم لا تمت لهم بقرابة، وإنما ينزلون ضيوفًا على مائها بئر زمزم حتى تموت، ويكبر الغلام، ويجيء الخليل الشيخ الوقور فيقوم إليه إسماعيل ويتعانقان عناق الوالد للولد، ويقول له: يا إسماعيل، إن الله أمرني أن أبني له بيتًا هنا. فيقول الغلام: أطع ربك. فيقول الخليل: وتعينني؟ فيقول الغلام: وأعينك. وحينئذ يبدأ الخليل بمعونة ولده إسماعيل بوضع أساس عمران مكة برفع بيت الله الحرام كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وهنا تبدأ عمارة مكة المكرمة بإسماعيل وذريته وأصهاره من جرهم، ثم قريش، ثم من شاء الله تعالى من خلقه.

وللكلام على ما تطور عليه هذا البلد الحرام إلى الآن حديث آخر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[1].... وقفنا في الحديث السابق في نشأة مكة المكرمة على وصول الخليل إبراهيم بابنه إسماعيل وسريته هاجر إلى جبال فاران، بين الأخشبين: أبي قبيس وقعيقعان، ذلك الوادي الخالي من كل حياة مادية؛ من ماء وزرع، فضلًا عن حيوان أو إنسان، سوى ما أودعه الله فيه من سر إلهي وحياة روحية، ستكون في الأجيال المقبلة مطلع شمس الهداية لبني الإنسان، ومشرق نور العالم والرشد والعرفان لبني آدم جميعًا، وتتربى فيه خير أمة أخرجت للناس.

أودع الخليل تركته إسماعيل وهاجر بأمر الله في هذا الوادي القفر من كل حياة إلا من روحانية السماء، فلا خيام ولا بنيان ولا اجتماع ولا عمران ولا عيون ولا أنهار، ولقد كان عندما يمر في طريقه من الشام على واحة حية بعيونها ورياضها وغياضها يسأل جبريل: أهنا محطة الرحل؟ فيجاب: لا، سر، ليس هنا المنزل. حتى ألق عصا التسيار بإذن الله في سفح جبل أبي قبيس الجدب القاحل، الخراب من زخرف الحياة الدنيا، العامر بالمعاني السامية والمبادئ الفاضلة وأصول الخير والدين، وكنز علوم العمران والاجتماع، ومهبط وحي الله على خير خلقه فيما بعد.

أودعهما الخليل بلا زاد ولا متاع سوى شنة بالية فيها وشل من ماء؛ إن كفى صباح يوم لم تبق منه باقية لمسائه.

وولى الشيخ راجعًا تاركًا فلذة كبده الرضيع ووحيده على الكبر بين الجبال والصخور، فنادته أم إسماعيل: إلى من تتركنا يا إبراهيم؟ أتترك امرأة مرضعًا أجهدها السفر الطويل مع طفل رضيع في واد قفر؟.

فقال في سره: إلى الله تعالى.

---

(١) تتمة مقال «كيف نشأت مكة المكرمة» - مجلة «الحج» - رجب - ١٣٦٩هـ.

فقالت: آلله أمرك بهذا؟.

فأجابها جهارًا: نعم.

فقالت أم إسماعيل: إذن لا يضيعنا الله.

وصدقت وصدَّق رجاءها؛ فكانت جدة العرب وراسمة تصميم مكة.

ما هذا الإيمان العظيم عند امرأة تترك بين الجبال؛ حيث لا ناس ولا أنيس ولا ماء ولا طعام؛ حيث الوحوش والذئاب ومن لا يؤمن شره من أهل البادية، عندما تخبر أن هذا الأمر لله فتؤمن بالله وتطمئن إلى حمايته ورعايته بلا درع ولا سيف ولا رمح ولا جنود ولا حامية إلا الثقة بالله ورعايته.

فعندما يعد الأبطال المغامرون فأم إسماعيل في رأس القائمة منهم، وإذا ذكر المؤمنون بالله الواثقون برعايته ولطفه؛ الموقنون بقيوم السموات والأرض فهاجر أم إسماعيل جوهرة وعقد نظامهم، ولؤلؤة درية في صدر تاريخهم.

وإن تعجب فعجب أمر ذلك الشيخ الوقور إبراهيم الخليل؛ إذ يدع فلذة كبده الرضيع بين الجبال والقفار مع أمه في واد ضواء تحيط به جبال موحشة، فلم يزعجه عليهما خوف ذئب أو ضبع أو وحش، ولا توقع عدوان أو بغي أو سلب أو نهب، فأين الحامي والمدافع والجار والمجير لهما سوى الإيمان بالله الذي يأتي بالخراق والعجائب، ويقع منه ما لا يتصوره الخيال فمرحى للإيمان بالله.

شربت هاجر ما تبقى من وشل ماء القربة حتى نفد، وجابت جوانب الوادي تبحث عن الماء؛ أول شروط الحياة، حتى صعدت على الصفا تنظر من بعيد ومن قريب لعل الرحمة الإلهية تسوق إليها حامل ماء فلم تر شيئًا، ثم نزلت إلى الوادي سعيًا على قدميها إلى المروة لعلها تجد عندها ما لم تجده عند الصفا، وجرت بين الصفا والمروة سبعة أشواط؛ كانت هي مبدأ الطواف بين الصفا والمروة في الحج بعد ذلك كما في الأثر للساعين: «هذا ما أورثتكم أمكم هاجر».

فأيتنا إذ نسعى نتذكر جهود تلك الساعية الجاهدة بحثًا عن الماء (أم إسماعيل).

ثم تسمعت صوت الرجاء يصيح من قلبها فأصغت إليه وقالت: أغث إن كان عندك غواث، ثم قالت: أرجع للغلام فأراه كيف يموت من العطش والجوع، فإن لفظ نفسه الأخير بين يدي جوعًا وعطشًا واريته التراب، واحتسبت فيه الأجر والثواب من واهبه والمحسن به أرحم الراحمين.

رجعت إلى حيث كان الغلام إذ خلفته يتلوى عطشًا وجوعًا بين الحصا والجنادل ومرتع الوحوش والهوام، فإذا جبريل الروح الأمين روح القدس الذي أرسله الله إلى مريم بعد ذلك ليبشرها بعيسى ابن مريم أرسله الله قبل ذلك إلى أم إسماعيل ليطمئنها على نفسها وعلى ابنها إسماعيل قائلًا لها لا تخافي الضيعة عليك ولا على ابنك إسماعيل فإن لله بيتًا سيبنيه هذا الغلام مع أبيه، وفحص الأرض بعقبه فخرجت زمزم؛ هزمة جبريل، وسقيا إسماعيل، وطعام الطعم، وشفاء السقم، فشربت وأرضعت رضيعها، وجعلت تحوط زمزم وتحصره، فرحم الله أم إسماعيل لو لم تحجز زمزم لكانت عينًا معينًا فائضة على وجه الأرض كما جاء ذلك الحديث الصحيح[1].

علمت أم إسماعيل من بشارة أمين السماء – روح القدس – لها ما كانت آمنت به أن الله لا يضيعها، كما علمت حكمة الله في ترك وضع إبراهيم لها ولولدها بواد غير ذي زرع، أنه سيعمر بعد ذلك وأنه بالإيمان والتقوى وعبادة الله تعالى، فألفت الوادي وشربت من زمزم طاعمة مرتوية، فعرفت فيه طعام طعم وشفاء سقم، كما أيد التاريخ والواقع ذلك على طويل الأيام، فقد عاش على زمزم أبو ذر الغفاري في فجر إسلامه ثلاثين بين يوم وليلة لا يطعم فيها غير زمزم حتى سمنت عليه طيات بطنه، والتجربة أم العلم الصحيح في كل زمان ومكان.

---

(١) صحيح: رواه البخاري (٣٣٦٤).

مرت قبيلة جرهم بأسفل الوادي فرأوا طيرًا عائفًا[1] على الوادي فقالوا: سبحان الله عهدنا بذلك الوادي لا ماء فيه فكيف بهذا الطير العائف ولا طير إذ لا ماء؟.

هكذا تحاورت جرهم فيما بينهم سؤالًا وجوابًا، وكان أن قر رأيهم على الوقوف على ما جد بهذا الوادي فقالوا لرائدهم: اذهب أيها الرائد وانظر طوية الوادي. فسبحان من يعمر الخراب ويحيى الأرض بعد موتها. ذهب الرائد؛ فإذا بعين زمزم وإذا الأنثى الفريدة الوحيدة ولا أنيس لها إلا الله ثم رضيعها وإيمانها بالله، فرجع الرائد إلى قومه جرهم يخبرهم خبر ما رأى؛ ويا نعم ما رأى، رأى الخير جاثمًا مجسمًا على صدر أم إسماعيل وولدها إسماعيل، فمالوا إلى الوادي واستأذنوا أم إسماعيل، وكانت تحب الأنس أن ينزلوا على الماء، فأذنت لهم على شريطة أنه لا حق لهم في الماء بتملك واحتكار فضلًا عن البيع والإيجار، وإنما لهم الإنفاق والانتفاع؛ لتبقى زمزم وقفًا لله على من سكن هذا الوادي بأمر الله تعالى ليعبد الله ويقيم الصلاة على مر الأجيال الآتية.

ترعرع الغلام إسماعيل وشب بين جرهم وتعلم منهم الفروسية ورمي النبال وصيد الغزال؛ شجاعة العرب وصراحة القول وفصيح العربية، علاوة على ما ورث من أبيه إبراهيم من قوة الجسد الأشورية وصفاء القلب الفراتي، ومن أمه هاجر رقة الطبع المصرية وعذوبة الكلام كعذوبة النيل، ونضج ذلك بحرِّ الصحراء، فإسماعيل وارث صفات الفرات والنيل المصفى بحرارة الصحراء والد العرب المستعربة.

وماتت أم إسماعيل؛ أم الأمة العربية بعد حياة عجب عجاب من رفاهة الحياة المصرية حيث النيل والجنات والرياض وعزة الملك؛ إلى خدمة الأكابر سارة وإبراهيم؛ إلى أم رؤوم تعيش مع ابنها في صحراء جرداء حارة يابسة خشنة

---

(١) العائف الذي يتردد على الماء ويَحُوم ولا يمضي. «غريب الحديث» لابن سلام (٤/ ٢١٨).

لا يلينها إلا الإيمان والرجاء وبرد اليقين؛ إلى عطش وجهد في طلب الماء سعيًا على الأقدام عطشانة كديدة مجهودة وحيدة فريدة، حيث يسعى الناس اليوم بين الدكاكين والظلال في قرقعة أكواب الشراب الحلو والماء المثلج وغناء الباعة وشخشة ورنين الدنانير والدراهم! فكأنما قدت أعصاب هاجر وأعضاؤها من حديد فولاذ، حتى يستثقل كثير منهم السعي على الأقدام في ظلال وأمان واطمئنان، بينما صور الناس اليوم من شمع وعجين.

وكانت خاتمة مطاف حياتها رؤية روح القدس أمين السماء والمكين عند ذي العرش جبريل ساقيًا ومبشرًا.

فهذه حياة عظيمة من امرأة عظيمة أهمل الكتاب والمثالون روايتها، ولم نر كاتبًا بليغًا أخرج قصتها الطريفة على صفحات تقرأ أو على شاشة بيضاء تشاهد بدلًا من خيالات قصتهم.

عدنا إلى الغلام إسماعيل وارث كمالات آشور من أبيه، ودماثه أخلاق مصر من أمه، المنشأ بين العرب الخلص من جرهم، المتغذي بآدابهم وأحوالهم الاجتماعية المنشأ بينهم، فقد ترعرع في جرهم حتى بلغ أشده، وتزوج منهم لينجب ذرية تحمل صفات الفرات والنيل والصحراء.

وجاء الخليل ليزور ابنه فإذا هو في الصيد وتقابله كنته[1] الجرهمية بلا عناية ولا ترحيب، وسألها عن زوجها إسماعيل؟ فتقول: ذهب يمتار لنا من صيد الصحراء. وسألها عن حالهم. فتقول: شر حال - والأنبياء لا يحبون تسخط الأقدار ولا التذمر من جشب العيش وخشونته - فيقول حموها الخليل. إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام، وقولي له: غير عتبة دارك[2].

رجع إسماعيل من صيده إلى داره وتوسم أثر زائر فقال: هل زارنا اليوم أحد.

---

(١) الكَنَّة: امرأة الابن. «لسان العرب» (كنن).

(٢) البخاري (٣٣٦٤)، وقد تقدم قريبًا جدًّا.

فقالت زوجه الجرهمية: نعم شيخ وقور قال لي كذا وقلت له كذا، وسألني عن عيشنا، فقلت: شر عيش، ويسلم عليك ويقول: غير عتبة دارك.

فقال إسماعيل: أنت عتبة الدار وحجر العثار، إلحقي بأهلك.

وما أحسن الفراق عند تخالف الطباع، فالفراق علاج داء الشقاق، وهو خير من عشرة النفاق المتزملة بالرياء المتدثرة بالشحناء والبغضاء، فهذه هي سنة الفطرة ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٣٠].

وتزوج إسماعيل بأخرى من جرهم بعد فراق الأولى، وغاب الخليل ما شاء الله أن يغيب، وعاد لزيارة الابن الوحيد، فكان حظه من لقائه ثانيًا كحظه في المرة الأولى؛ غياب لامتراء العيش من صيد القفار، غير أن الجرهمية الثانية قابلت حماها الشيخ الوقور بوجه غير وجه سابقتها، ولعلها اعتبرت بما جرى على سالفتها، والتاريخ عبر والعاقل من اعتبر، فأهلت وسهلت ورحبت ورجت الشيخ أن ينزل عن دابته لينال راحة وكرامة فأبى، فغسلت له رأسه وسألها عن عيشهم؟ فأثنت خيرًا. وسألها عن طعامهم؟ فقالت: اللحم والماء، فدعا لهما بالبركة فيهما – فلحم مكة مبارك بدعوة الخليل خلافًا لما يشيعه عنه من لم يعرف سوى كلمات ناقصة عن تجارب ناقصة من أنظار طب ناقص عن قوم قاصري الأنظار – سر الخليل من كنته وزوج ولده ولقائها الباش وترحيبها الكريم ورضاها عن الله وأقداره ورضاها عن حال عيشها مع زوجها فقال لها أقرئي زوجك السلام وقولي له: ثبت عتبة دارك، وكانت هي العتبة، فاحتفظ بها إسماعيل للخلق الكريم منها والوصية الحنون من أبيه.

ثم كانت بعد ذلك قصة الذبيح وقصة بناء البيت مما ينبغي أن يفرد ذلك بحديث ممتع بعد ذلك إن شاء الله تعالى، فإلى اللقاء.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *